**المحاضرة 05: الثقافة، مفهومها، طبيعتها، وعلاقتها بالأنتروبولوجيا**

* **تمهيد:**

يظهر المعنى الحقيقي للثقافة في السلوكيات عن طريق الاعتقادات المتبعة، والأفكار المدروسة البناءة، والتذوق العالي لمختلف الفنون والثقافات.

ظهر هذا المفهوم تحديدا في أوروبا عند نهاية القرن الثامن عشر إلى بدايات القرن التاسع عشر لتحسين مستوى الأفراد، والعمل على إصلاحهم، وأصبح يهدف هذا المفهوم فيما بعد إلى تطوير وتعديل المهارات الايجابية للإنسان من خلال التربية والتعليم وبحلول القرن العشرين، أصبح هذا المفهوم المبدأ الأساسي في علم الأنتروبولوجيا ليحوي في معناه تفسيرين أساسيين:

* تطور القدرة الإنسانية، وتلخيص تجاربها بطريقة رمزية، والتصرف بطريقة إبداعية خلاقة.
* تفسير التباين البشري، كلُ حسب خبرته وتجاربه وفقا للبقعة الجغرافية التي يعيشها وردود الفعل الايجابية في مواجهة الكوارث والحروب، والعمل على التنمية والبناء وابتكار علوم جديدة، وهذا ما حدث إبان الحرب العالمية الثانية فقد تعزّز مفهوم الثقافة في خلق وتطوير هذه التخصصات والعلوم، كعلم النفس التنظيمي، وعلم الاجتماع، والإدارة والأبحاث الثقافية.

1. **في طبيعة الثقافة:**

تتنوع الحصيلة المعرفية للبشر بحسب اختلاف اهتماماتهم، فالبشر مختلفون بحسب طبائعهم ومعارفهم، فهناك من يهتم بتحقيق الانجازات فقط، وهناك من تجده مهما بتطوير ذاته وتحصيل أكبر قدر من المعارف، وهنا تعد ثقافة الشخص مؤشر جيّد عن قدراته وعن شخصيته، حيث تحصل هذه الثقافة عن طريق القراءة وحب المعرفة والتعلم.

وتظهر الثقافة كمعيار للحكم على المجتمعات البشرية، حيث تعني مجموع العادات والقيم والتقاليد التي تعيش وفقها جماعة أو مجموع بشري، بغض النظر عن مدى تطور العلوم لديه أو مستوى حضارته وعمرانه.

وهنا تعد الثقافة عاملا هاما في تصنيف المجتمعات والأمم وتمييز بعضها عن بعض وذلك بالنظر إلى ما تحمله مضمونات الثقافة من خصائص ودلالات ذات أبعاد فردية واجتماعية وإنسانية أيضا.

لأجل هذا تعددت تعريفات الثقافة ومفهوماتها، وظهرت عشرات التعريفات، منها ما أخذ بالجوانب المعنوية والفكرية، أو بالجوانب الموضوعية المادية، أو بكليهما معا باعتبار الثقافة في إطارها العام تمثل سيرورة المجتمع الإنساني وإبداعاته الفكرية والعلمية.

1. **مفهوم الثقافة:**

لعل أقدم تعريف للثقافة وأكثرها شيوعا، ذلك التعريف الذي وضعه ادوارد تايلور والذي يفيد بأن الثقافة "هي ذلك الكل المركب الذي يشتمل على المعرفة والعقائد، والفن والأخلاق والقانون، والعادات وغيرها من القدرات التي يكتسبها الإنسان بوصفه عضوا في المجتمع"([[1]](#footnote-1))

وعرّفها عالم الاجتماع الحديث –روبرت برستيد- بقوله "إن الثقافة هي ذلك الكل المرّكب الذي يتألف في كل ما نفكر فيه، أو نقوم بعمله أو نمتلكه كأعضاء في المجتمع" وربما يكون أحدث مفهوم للثقافة هو ما جاء في التعريف الذي اتفق عليه في إعلان مكسيكو سنة 1982، والذي ينص على أن الثقافة بمعناها الواسع هي "جميع السمات الروحية والمادية والعاطفية التي تميز مجتمعا بعينه، أو فئة اجتماعية بعينها، وهي تشمل: الفنون والآداب وطرائق الحياة، كما تشمل الحقوق الأساسية للإنسان، ونظم القيم والمعتقدات والتقاليد"([[2]](#footnote-2))

ويظهر أن الثقافة في جانب من جوانبها هي التراث الفكري الذي تتميز به جميع الأمم عن بعضها البعض، حيث تختلف طبيعة الثقافة وخصائصها من مجتمع إلى آخر، وذلك للارتباط الوثيق الذي يربط بين واقع المجتمع وتراثه الفكري والحضاري، كما أن الثقافة تنمو مع النمو الحضاري للأمة، وتتراجع مع ذلك التخلف الذي يصيبها، وهي التي تعبر عن مكانتها الحضارية بمستوى الثقافة الذي وصلت إليه.

ويظهر من خلال الشواهد التاريخية أن أغلب الثقافات تلتقي مع بعضها البعض في كثير من الوجوه، عن طريق الامتزاج، واللقاء بين الشعوب وتفاعلها مع بعضها البعض ما يؤدي إلى تأثيرات جزئية أو كلية في طبيعة هذه الثقافات وخصائصها.

1. **الثقافة موضوعا للأنتروبولوجيا:**

ينتج الإنسان الثقافة لتصبح هي نمط عيشه، ومؤشرا على تطوره وارتقائه، وقد استخدم مصطلح الثقافة-The culture في مجال الإنسانيات استخداما عاما وأصبح هذا المصطلح دالا مفهوميا ضمن المعجم الأنتروبولوجي الحديث.

ففي هذا العلم ليس هناك اتفاق على مفهوم الثقافة بالمعنى الاصطلاحي لأنه متعدد الدلالات في سياق استخدامه العلمي والمنهجي، ولكنه في الوقت ذاته محكوم بإطار مفهومي لا يختلف عليه المشتغلون بالإنسان وثقافته.

ويظهر مصطلح علم الثقافة، وهو أحد الفروع المتخصصة عن علم الأنتروبولوجيا ويدرس هذا العلم سلوك الإنسان وفقا لتأثره في حياة الجماعة التي يعيش ضمنها، ويشمل هذا التأثر كافة الجوانب الدينية، والثقافية والاجتماعية، كما يدرس هذا العلم الأساليب المتنوعة لحياة الأفراد في المجتمعات البشرية، وطبيعة تأثير المزاج، والتغير الثقافي على حياتهم من خلال دراسات طبيعة الثقافات المشتركة والمختلفة بين المجتمعات، مما يساهم في الوصول إلى تفسير واضح لطبيعة الحياة الثقافية الإنسانية.

ويظل التطور في مفهوم الثقافة culture نتيجة منطقية للجذر اللاتيني له، عن طبيعة الإنسان الأوروبي ودوره في العصر الحديث، الأمر الذي ينظر إليه تيري أيفلتون على هذا المفهوم بقوله: "إننا نستمد من العمل والزراعة ومن المحاصيل والفلاحة تلك الكلمة التي نشير بها إلى أرض النشاطات البشرية وأرقاها، فيما تدل الخارطة الدلالية على ما تكشف من ارتياح البشرية وتحولها من الريفي إلى المدني"([[3]](#footnote-3)).

وتنظر الموسوعة الثقافية العلمية إلى موضوع الثقافة على أنه: تراث يكتسبه الناس من جيل لآخر عن طريق التعليم، كما أنها تراكمية وسهلة الفكر والمعرفة في المجال العلمي والنظري، وأنها إنسانية، تخص الكائن الإنساني الوحيد الذي يملك جهازا عصبيا راقيا وقدرات عقلية فريدة، وأنها مستمرة يرثها أعضاء المجتمع من جيل إلى جيل آخر وهي متصلة بالماضي والحاضر، ويمكن من خلالها التنبؤ بالمستقبل، وهي متغيرة تتكيف مع واقعها وتستجيب لحاجاتها، وهي مثالية وواقعية، ولكنها متغيرة والتغير لا يمكن قياسه إلا في مقابل العناصر التي تكون ثابتة نسبيا، كما لا يمكن قياس الثبات إلا في مقابل تلك العناصر التي تتغير اكبر.([[4]](#footnote-4))

ويظهر السلوك الذي ينتقل عن طريق التعلم من جيل إلى جيل منطويا تحت مكونات الثقافة وخصائصها، والإنسان وحده من له ثقافة، وإن لم تكن بهذا التعقيد الذي عليه الآن ويظهر هذا التعقيد من خلال الثقافة المادية، والثقافة اللامادية وكلاهما ينتظمان حول إشباع الحاجات الرئيسية، الأمر الذي يعطي نظمه الاجتماعية التي هي جوهر الثقافة لتكون نمطا يميّز كل مجتمع على حدة.([[5]](#footnote-5))

وقد شهد مفهوم الثقافة عدّة تحولات بحسب التحولات التي شهدها هذا العالم، وكذا اختلاف الدارسين حول الثقافة كل حسب تخصصه المعرفي، ففرانس بواز مثلا، أكد على أن الثقافة تشمل بالضرورة الحقول المادية والاجتماعية والرمزية، حيث أن بواز لم يستخدم الثقافة مرادفا للحضارة، كما ذهب إلى ذلك ادوارد وتايلور، حيث أكد بواز على اختلاف الثقافات، والنظر إليها كسياقات للسلوك الإنساني الذي يكتسب عن طريق التعلم وقد استدعى هذا المفهوم مصطلح النسبية الثقافية، وهي الفكرة التي تعتبر ضرورية لفهم الثقافات في ضوء مصطلحاتها الخاصة وسياقاتها التاريخية قبل محاولة التعميم.([[6]](#footnote-6))

ويظهر مما سبق أن للثقافة أهمية بالغة في حقل الأنتروبولوجيا، بل وتعد نقطة تمركز بالغة الأهمية في معرفة مختلف السياقات التاريخية التي مرّ بها الإنسان في انجازاته وإبداعاته، وقد اختلف الأنتروبولوجيون في تحديد السياقات المختلفة التي مرّت بها الثقافة لكنهم يتفقون في النهاية على مفهوم وأهمية الثقافة في التاريخ الإنساني ويؤكدون على أن التطوّر والانتشار، والتراكمية هي من الخصائص الأساسية التي تميّز كل الثقافات مهما اختلفت أو اتفقت.

1. **()**-عيسى الشماس، مرجع سابق، ص80. [↑](#footnote-ref-1)
2. **()**-عيسى الشماس، المرجع السابق، ص81. [↑](#footnote-ref-2)
3. **()**- تيري ايفلتون: الثقافة في طبعاتها المختلفة، ترجمة: ثائر الاديب، مجلة الكرمل، ع2، بيروت، لبنان، ص10. [↑](#footnote-ref-3)
4. **()**- الموسوعة الثقافية العلمية، اعداد بهيجة اسماعيل بهبهاني، الكويت، 1997، ص26. [↑](#footnote-ref-4)
5. **()**- رايموند وليامز: الثقافة والمجتمع، ترجمة: وجيه سمعان، (د.ط)، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ص105. [↑](#footnote-ref-5)
6. ()- فريدريلو بارث، وآخرون: الأنتروبولوجيا، حقل علمي واحد، وأربع مدارس، مرجع سابق، ص: 362. [↑](#footnote-ref-6)